

النزعة الإنسانية في فكر ابن الجزار

د. عبد الباسط الغابري
مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان
جامعة الزيتونة - تونس

مقدمة

يسود الاعتقاد لدى بعضهم من اعتباطية البحث في مسألة النزعة الإنسانية في النصوص الطبية، إذ يشير ذلك عديد التساؤلات لعل أكثرها إلحاحاً : هل يمكن أن ينفصل الطبّ عن الإنسان ذاتاً وموضوعاً ؟ وبأي معنى سنستقرئ النزعة الإنسانية في مؤلفات أحد الأطباء العرب المسلمين ؟ ألا يبدو الخوض في هذه المسألة من قبيل المحاكاة والتقليد لما طرحه المفكر الجزائري محمد أركون سنة 1970 في أطروحته الموسومة بنزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل التوحيدي ومسكويه ؟ أفليس ذلك من الإسقاط المعيب ؟

لا جدال أنّ هذه التساؤلات وغيرها مشروعة نوعاً ما باعتبار أنّ عبارة "النزعة الإنسانية" لا تخلو من تعميم مربك للفهم والاستيعاب لا في المحضن العربي فحسب، بل حتّى في الثقافة الغربية ولا سيّما الفرنسية، إذ من يتصفّح على سبيل المثال مادة (Humanisme) التي حرّرها "جون كلود ماركولان" (Jean Claude Margolin) في دائرة المعارف الكونية⁽¹⁾ يلاحظ ببسر ارتباكاً

واضحاً لا في التبويب والترتيب، بل في عرض واستعراض المعلومات والحيثيات المتصلة بالسياقات المعرفية والتاريخية والحضارية التي أنتجت ذلك المفهوم وهو ما يفرض علينا إزالة ذلك اللبس بمحاولة توضيح مفهوم النزعة الإنسانية، ثم استقراء تجليات النزعة الإنسانية في فكر ابن الجزار ⁽¹⁾، فحصر أبعاد تلك النزعة الإنسانية ومقاصدها.

ولا شك أنّ صعوبات جمّة تواجه كلّ من يروم البحث في هذه المسألة في الثقافة العربية لا لافتقارها أو لندرة المواقف الإنسانية في الحضارة العربية كما يلمح إلى ذلك بعض المستشرقين ومن اقتفى أثرهم من مفكرّي العالم العربي ومتقفيه، بل لصعوبة تعريب مصطلح (Humanisme)، إذ لا نجد له مرادفاً حقيقياً في اللغة العربية، وإن كنا نجد بعض المرادفات الخاصة بالمنظومة الثقافية والذهنية العربية الإسلامية مثل "الرّحمة والإحسان"، وهو ما أدّى بمحمد أركون إلى تنويع استعماله مرادفات عدّة في أطروحته سألغة الذكر، فهو يستعمل الفلسفة الإنسانية والنزعة الإنسانية والاتجاه العقلي والإنسية والتّيار الإنساني والعقلاني في الساحة العربية ⁽²⁾.

(1) ابن الجزار (ت 369 هـ / 980 م) أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، أبو جعفر القيرواني، ابن الجزار : طبيب مؤرخ، من أهل القيروان. يعرف في أوروبا بالجزار. يقول عنه الصّدي نقلاً عن سليمان بن جلجل : " وكان صانئاً لنفسه منقبضاً عن الملوك ذا ثروة لم يقصد أحداً إلى بيته، وكان له معروف وأدوية يفرقها، وكان موجوداً في أيام المعز في حدود سنة خمسين وثلاث مائة أو ما قاربها. له عديد المؤلفات منها "زاد المسافر وقوت الحاضر" ترجم إلى اللاتينية واليونانية والإيطالية، والاعتماد في الأدوية المفردة والمركبة" وعديد المؤلفات الأخرى التي اعتمدنا بعضها في دراستنا هذه إلى جانب بعض المؤلفات المفقودة مثل "التعريف بصحيح التاريخ" و"عجائب الأرض" و"النفس واختلاف الأوائل فيها" و"الاستهانة بالموت".

وللتعريف به راجع : ابن جلجل الأندلسي، سليمان، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، ط 1، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، 1952م، ص 84-91.

- ابن أبي أصيبعة، موفّق الدين أبو العباس، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط1، دار الفكر، بيروت، ج 2، 1957م، ص 59 - 61.

- الصّدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، ط2، تحقيق هلموت ريتز، دار النشر فرانز شتاينر، قيسبارن، 1962، ج 2، ص 290 ؛ والزركلي، خير الدين، الأعلام، ط14، دار العلم للملايين، بيروت، 1999، ج 1، ص 85 ؛ وعيد الوهاب، حسن حسني، ورقات من الحضارة العربية بافريقية، ط1، مكتبة المنار، تونس، 1965م، ج 1، ص 306 - 322.

(2) أركون، محمد، نزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل التوحيدي ومسكويه، ط 1، دار الساقى، بيروت، 1997م، ص 16.

ورغم أن أركون قد أشار إلى أن مصطلح "أدب" كان يعني في الفترة الكلاسيكية الموقف الإنساني تجاه المعرفة والممارسات المرافقة له⁽¹⁾ وإلى أن مصطلح "أدب الأدب"⁽²⁾ مرادف له، فإنه ابتدع مصطلح "الأنسنة" وهو مصدر على وزن فعلة " يفيد الجعلية وقد قصد بها في أطروحته المذكورة سلفا الاجتهادات الفكرية لتعقل الوضع البشري والمنزلة الإنسانية وفتح آفاق جديدة بمعنى المساعي البشرية لإنتاج التاريخ، مع الوعي بأن التاريخ صراع مستمر بين قوى الشرّ والتدمير والجهل وقوى الخير والسلم والمعرفة المنقذة من الضلال⁽³⁾.

نستخلص مما سلف أن أركون قد وسّع دلالات النزعة الإنسانية، إذ أدرج ضمنها كل ما يتصل بالاجتهادات البشرية وآداب المناظرات والمساجلات الفكرية والعقيدية والتعايش الحضاري بين مختلف الملل والأعراق، وهو تحوير له ما يبرّره ما دام الأمر متعلقا بإنسانية الإنسان أي ما به يتميز الإنسان وما به تترسّخ قواعد السلوك الحضاري والتعايش السلمي.

وبالنسبة إلى دراستنا، فإنه حقيق بنا الإشارة إلى أن ما نعينه بالنزعة الإنسانية في فكر ابن الجزار مجموعة العناصر العقلانية والأخلاقية والحضارية ذات الصلة بالإنسان بما هو ذات واعية متفاعلة تفاعلا إيجابيا مع كينونتها.

1) تجليات النزعة الإنسانية في فكر ابن الجزار

لئن كانت دراسة النص العلمي تختلف عن بقية النصوص، ولاسيما النص الحضاري أو الأدبي، فإن ذلك الاختلاف لا يعني في هذا السياق استحالة تدبره واستقرائه. فالمتملّ في مؤلفات ابن الجزار يتيقن من أن صاحبها اختار لها أسلوب التبسيط والإيجاز بالابتعاد عن الغلو والتكلف لكي يستطيع مخاطبة

(1) أركون، محمد، معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، ترجمة هاشم صالح، ط 1، دار الساقي للطباعة والنشر، بيروت، 1997، ص 30.

(2) على غرار كتاب ابن قتيبة "أدب الكاتب".

(3) معارك من أجل الأنسنة، الهامش، ص 7.

جميع قرّائه حتّى العادي منهم. يقول ابن الجزار في هذا المعنى : "ألّفت عندما علمت ذلك كتابا في علاج الأدواء التي تعرض في جميع أعضاء البدن وسميته «زاد المسافرين وقوت الحاضر» وأخرجته من فساد التكليف والتطويل ومن سماجة التعقيد والتوغيل فشاع في البلدان خبره، وحسن عند الحكماء أثره" (1). وقد يستر ذلك لنا استقرار عناصر النزعة الإنسانية في مؤلفاته، إذ وجدنا أنفسنا أمام حكيم وضع نصب عينه منذ البداية هاجس قرّائه ومنظوريه بالحرص على تأمين استفادتهم ونيل حظهم من المعرفة، ممّا يعني تجذّر الحسّ الإنساني لدى ابن الجزار القيرواني. وبناء على ذلك سنحاول تحليل أهم عناصر النزعة الإنسانية في فكره.

التلاقح الحضاري والتراكم المعرفي

رغم ما يعرف عن ما سمي بالقرون الوسطى من سيطرة مفهوم العصبية وتتابع الصراعات والحروب على أساس التباينات الدينية والمذهبية أو السياسية، فإننا نلمس في فكر ابن الجزار وعيا حقيقيا بأهمية التراكم المعرفي في تطوّر المعرفة البشرية ككل، وهي النتائج التي توصّل إليها في بحوثه الطبية بصفة خاصة، إذ لا يضع نفسه مجرد مبتدع لا فضل إلا لعبقريته الفذة والخارقة، بل حلقة وصل بين مختلف الحضارات وحضارته العربية الإسلامية التي كانت تتملّ مركز الحضارة الكونية آنذاك، وجامع لمستخلصات غيره من الحكماء. يقول في ذلك : " فلما كان الأمر في ذلك على ما وصفنا رأيت أن أجمع المتفرّق من ذلك في الكتب الكثيرة، وألّفت بعضه إلى بعض في هذا الكتاب كالذي يؤلف من الجوهر إكليلا بهيا، وينظّم منه عقدا حسنا، وأضمّنه جميع ما علمنا أنّ جالينوس قاله في ذلك، وأضيف له ما أجمعه من الكتب موبّيا " (2).

(1) ابن الجزار، كتاب طبّ الفقراء والمساكين، تحقيق الراضي الجازي وفاروق عمر العسلي، ط 1، مطبعة المغرب للنشر، وبيت الحكمة بقرطاج، تونس، 2009م، ص 75.

(2) ابن الجزار، سياسة الصبيان وتديبرهم، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيت الحكمة بقرطاج، تونس، 2008م، ص 57.

ولا جدال في أنّ الثقل العلمي والمكانة المتميّزة لابن الجزار هي التي بصّرت به قيمة التواضع العلمي وضرورته باعتباره من العلامات الدالة على نبوغ العالم وسعة أفقه. وإنّ هذا الإقرار من ابن الجزار نفسه يزيد في قيمته لدينا، وهو ما يفسّر إلى حدّ ما الشهرة التي اكتسبها في عصره وإلى يومنا هذا في بقاع عديدة من المعمورة. وهو ما يؤكّد أنّ نظرية المعرفة لديه تتأسّس على ثلاثة مراحل متكاملة :

مرحلة أولى هي مرحلة جمع المعلومات المتفرّقة في عدّة مصادر مخطوطة وسماعية، ثم المرحلة الثانية وهي مرحلة التبويب والترتيب، فالمرحلة الثالثة وهي مرحلة الإضافة والإبداع. وفي الواقع هذه المراحل لا تتعلّق بابن الجزار وحده، بل تتسحب على كلّ العظماء المجتهدين. ولعلّ ذلك أحد الأشكال التي أسهمت في التراكم المعرفي والتلاقح الحضاري الذي تميّزت به المدرسة الطبيّة القيروانية، وهو ما جعلها قطبا مشعّا على محيطها الاقليمي. فقصد القيروان -على سبيل الذكر- الطبيب الأندلسي أبو حفص عمر ابن بريق الأندلسي. وقد مكثّ ستة أشهر يتتلمذ عند ابن الجزار (1). وأخذ عنه الصناعة وروى عنه تآليفه، ثم عاد بعد ذلك إلى الأندلس، وخدم بالطب الأمراء الأمويين خصوصا الخليفة عبد الرحمان الناصر الذي استخلصه لنفسه، وابن بريق هذا هو الذي أدخل كتب أستاذه ابن الجزار إلى جزيرة الأندلس فتلّقها عنه جماعة من الاخصائيين بالصناعة الطبية ما بين مسلمين ويهود ونصارى (...). فراجت كتبه بينهم أيّما رواج وترجمت إلى لغاتهم كما يأتي بيانه (2).

وفي هذا السياق تعتبر ترجمة مؤلّفاته، ولاسيما في عصره وجها من وجوه التبادل الثقافي والمعرفي، إذ لم تتعامل المركزية الإسلامية باستعلاء أو بنزعة احتكارية للمعلومات مع الآخر، رغم ما كان بين الجانبين من صراعات

(1) ابن ميلاد، أحمد، أحمد بن الجزار الطبيب القيرواني، ط 1، المطبعة التونسية، سوق البلاط بتونس، 1965، ص 8.

(2) عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات، م.س، ص 312.

وحروب. وأهم كتب ابن الجزار التي ترجمت⁽¹⁾ هي : كتاب "زاد المسافر وقوت الحاضر" الذي يبدو أنه ثمرة لأسفار ابن الجزار البحرية؛ فقد ذكرت " زغريد هونكة" أنه كان كثيراً ما يصاحب السفن العربية التي تذهب من تونس إلى الشواطئ الأوربية ويعمل طبيباً على ظهرها. وقد ترجمه إلى اللغة اليونانية بعنوان (Ephodes) " قسطنطينوس رجنينوس " (Kostantinos) Rheijinos (في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي. وقد ظلت هذه الترجمة من القرن العاشر حتى القرن السادس عشر للميلاد تلقى التقدير الكبير والانتشار الواسع رغم التغييرات والتعديلات الكبيرة التي أبعدت الكتاب عن نصّه الأصلي. وأقدم هذه الترجمات تعود إلى القرن العاشر، وهي محفوظة في مكتبة الفاتيكان وفي المكتبة الوطنية بباريس. كما ترجم نفس الكتاب مرتين إلى اللاتينية أولاًهما أنجزها قسطنطين الإفريقي (Costantine L'Africain) في القرن الخامس عشر الميلادي بسلرنة (Salerno) حيث تأسست مدرسة طبية هي امتداد حقيقي للمدرسة الطبية القيروانية، رغم الفعل المشين الذي قام به المترجم قسطنطين الإفريقي بانتحال كتاب "زاد المسافر" إلى نفسه⁽²⁾. إذ صار عنوانه بعد نقله إلى اللاتينية (Viaticum) وحذف منه أسماء العلماء العرب الذين ذكرهم ابن الجزار ولخص الكتاب بشكل كبير، بل صدره بمقدمة يتحامل فيها على المنتحلين للكتب إمعانا منه في التضليل⁽³⁾.

وثانية الترجمتين قام بها عالم إسباني يدعى " ستيفانوس دي ساراقوسا " (Stephanus de Saragossa) سنة 1259 م بإسبانيا⁽⁴⁾. وترجم الكتاب كذلك إلى اللغة العبرية ترجمتين الأولى سنة 1124م والثانية سنة 1259م عن طريق موسى بن طوبون بعنوان (Tzedad derachim)⁽⁵⁾. وإلى جانب كتاب "زاد

(1) تصفحنا عديد المراجع في هذا الصدد، يعتبر كتاب إبراهيم بن مراد، بحوث في تاريخ الطب والصيلة عند العرب، أهمها. راجع ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 204 - 208.

(2) ابن ميلاد، أحمد، ابن الجزار ... م.س ، ص 10، وابن مراد، إبراهيم، بحوث ... م.س، ص 205.

(3) ابن مراد، إبراهيم، بحوث في تاريخ الطب.... م.س، ص 205.

(4) م.ن، ص 206.

(5) م.ن، ص 207.

المسافر " ترجمت كتب أخرى لابن الجزار منها "كتاب الاعتماد" و"كتاب الخواص" وكتاب "في المعدة وأمراضها ومداواتها " وكتاب "مقالة في الجذام" وكتاب "طبّ الفقراء والمساكين" (1).

ولم نشأ التفصيل أكثر بالاستمرار في تعداد عناوين الترجمات وأماكن حفظها لأنّ غايتنا أهمّ من ذلك، إذ ذكرنا ترجمة مؤلفات ابن الجزار في سياق التأكيد على كونية المعرفة الإنسانية التي أنتجتها المنظومة الفكرية العربية الإسلامية إبان ازدهارها من خلال مثال ابن الجزار الذي لا يعدو أن يكون سوى مثال للنضج الذهني والوعي الحقيقي الذي وصلت إليه المنظومة الثقافية والذهنية في العالم العربي والإسلامي، إذ استطاع ابن الجزار استيعاب التراث اليوناني بشقيّه الهليني القديم والبيزنطي الاسكندراني والتوفيق بينه وبين المصادر العربية الإسلامية من جهة واجتهاداته الفردية ومستجدّات الواقع من جهة أخرى دون مفارقات. ومن أهمّ المصادر اليونانية التي اعتمدها ابن الجزار في كتبه، ولا سيّما "زاد المسافر" وكتاب " الاعتماد في الأدوية " (2)، يمكن أن نذكر : ديوسقوريدس (Dioscoridos) من القرن الأوّل الميلادي، وجالينوس (Galenos) من القرن الثاني الميلادي، وبديغورس (Pythagoras) وهو الاسم الذي اشتهر به العالم الفيلسوف اليوناني فيثاغورس، وأرسطاطاليس (Aristoteles) من القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وإبقراط (Hippocrates) من القرن الرابع قبل الميلاد، وبولس (Paulos) الأجانيطي الاسكندراني من القرن السابع الميلادي، وروفس (Rufus) الأفسيسي من القرن الثاني الميلادي. ويضاف إلى ذلك عديد العلماء الآخرين مثل ثاوفراسطس (Theophrastos) وأبلنيوس الطواني (Appollonios de Tyane) وأياطيوس الأمدي (Aetios d'Amide) وقريط (Kriton) (3).

ومّا أهمّ المصادر العربية فيمكن أن نذكر تياذوق (ت حوالي سنة 90هـ/709م) وماسرجويه (من القرنين الأوّل والثاني الهجريين/السابع والثامن

(1) م.ن، ص 207 - 208.

(2) م.ن، ص 192 - 193.

(3) م.ن، ص.ن.

الميلاديين)، ويوحنا ابن ماسويه (ت 243 هـ/857 م)، وأبو يوسف يعقوب الكندي (ت 256 هـ/870 م)، وإسحاق بن عمران (ت 279 هـ/892 م) إلى جانب بعض العلماء الآخرين الذين اعتمدتهم بدرجة محدودة مثل إسحاق بن سليمان، وبختيشوع بن جبريل، وزباد بن خلفون، وأبو بكر محمد ابن الجزار، وقسطا بن لوقا البعلبكي⁽¹⁾.

وإنّ توفيق ابن الجزار في الخروج بصياغة متماسكة ومتمينة بين مرجعتين متباينتين يقيم الدليل على قدرة العقل البشري والفكر الإنساني على تجاوز تناقضات الخصوصيات الثقافية والاثنية تجاوزا مبدعا وخلّاقا ينهض بالإنسان أينما كان.

الموضوعيّة العلميّة

لقد تعامل ابن الجزار مع ثقافة عصره ومستجدات واقعه تعاملًا عقلانيًا يستند في جميع حيثياته إلى تغليب الضرورة الإنسانية وتقديمها على ما سواها من الاعتبارات الأخرى كالدين والمذهب والعرق. فما دامت احتياجات الإنسان الصحيّة واحدة، لا ضرر من الاقتباس من معارف الآخرين، حتّى لو كانوا وثنيين بشرط التعامل التجريبي والنقدي معها، وهو مايشي بتبنيه لمنهج تجريبي يعي بقيمة تجريب العقاقير والوصفات الطبيّة واختبارها قبل الحكم النهائي على فاعليتها ونجاعتها. وفي هذا السياق تتوارد في نصوصه عبارات من قبيل " هذا ألفته وقد عرفنا فضله وبيّنا نجاحه"⁽²⁾.

ويبدو أنّ الاختبار أو التجريب عند ابن الجزار يرتبط بتجذّر مبدأ النسبيّة لديه، إذ يؤكّد أنّ ما يوجد في ذلك الإقليم من أعشاب ونباتات قد لا يوجد في الإقليم الآخر وما قد يصلح هنا قد لا يصلح هناك وهي خاصية تنطبق حتّى على الإنسان، إذ يتوجّب عليه التكيف مع أطوار حياته المختلفة تكيفًا يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات كلّ مرحلة عمرية وخصوصياتها. يقول ابن الجزار في هذا

(1) راجع ابن مراد، بحوث في تاريخ الطب، م.س، ص 193 - 194.

(2) ابن الجزار، كتاب في طبّ المشائخ وحفظ صحتهم، تحقيق فاروق عمر العسلي والراضي الجازي، بيت الحكمة بقرطاج، تونس، 2009، ص 23.

السِّيَاق : "وقد أجمل جالينوس هذا في فصل قال فيه إنَّ حفظ الصَّحَّة يكون على وجهين أحدهما الاقتداء بما يوافق سنَّ الإنسان وأزمنة السَّنة التي هو فيها والعادة التي اعتادها والأطعمة والأشربة التي أَلْفَهَا، والوجه الثاني المزاج وما تولَّد فيه من الفضول، والمواد الرديَّة، وذلك أنَّ كلَّ ما يتناوله الإنسان من طعام أو شراب ليس كلُّه محمودا لتولَّد الدم الخالص النقي..."⁽¹⁾، ولا جدال في أنَّ التجريب والنسبية قد كشفَّا لابن الجزار نتائج عديدة وهو ما يسرُّ له الإصداع بأحكام نهائية حاسمة، وهو ما يعني تعزيز الثقة لديه في علمه، بل تجاوز مجرد الاعتزاز إلى الإفادة والابتكار والتتظير. وفي هذا السياق لم يتحرَّج ابن الجزار من نقد جالينوس ودياسقوريدوس، رغم تنويهه بهما واعتمادهما مصدرين هامين في بحوثه حيث يقول في ذلك : " ولم أر كأحد من الأوائل المتقدِّمين، ولا لمن تشبَّه بهم وقفا آثارهم من المعقبين في ذلك كتابا جامعاً مرضياً، ولا كلاماً شافياً بحسب ما يجب أن يؤلَّف في هذا الباب الكريم المنفعة العظيم الفائدة لمعالجة الأسقام والأدواء إلَّا الرجل الذي يسمَّى دياسقوريدوس والرجل الذي يسمَّى جالينوس فإنَّ هذين الرجلين لا نهاية وراءهما ولا حجابة بعدهما فيما عايناه من هذا الفنِّ. غير أنَّ وجدنا ما عاينَّا من ذلك قد لحقه التقصير عن بلاغ غاية المدح في ثلاثة أوجه : الأوَّل أنَّ دياسقوريدوس ذكر منافع الأدوية ومضارها ومناسبتها والمختار منها، ولم يذكر طبائعها ولا كمِّيَّتها وقوَّة كلِّ واحد منها في أيِّ درجة هو من حرارة أو برودة أو رطوبة أو يبوسة. أمَّا جالينوس فإنَّه ذكر قوى أكثرها، ولم يبالغ في ذكر منافعها ومضارها وخواصها المخصوصة بها. والوجه الثاني أنَّ كثيراً من الأدوية التي أَلْقياها مجهول غير معروف في اللسان العربي وكثير منها معدوم غير موجود. والوجه الثالث أنَّهما تركا كثيراً من الأدوية المفردة التي لا غنى لأحد من الأطباء عن علمها ومعرفتها لمعلوم منفعتها وكثرة الحاجة إليها أعني إلى استعمالها فإنَّما يوجد القول عليها مفرقاً في كتب كثيرة وأماكن مختلفة " ⁽²⁾.

(1) ابن الجزار، كتاب في طبِّ المشائخ، ص 46 - 47.

(2) ابن الجزار، الاعتماد في الأدوية، ط 1، مطبعة كليت، شتوتغارت، (د - ت)، ص 2.

ولا شك أن الاهتمام إلى كثير من الأدوية المفردة انطلق من إمام مفصل بالأمراض وعللها، وهو ما حفظه له الطب المعاصر فاعتبره أقدم من خطى خطوة عملاقة في علم التشخيص التفريقي⁽¹⁾.

بيد أن هذا المنهج النقدي يعترف بالجهد البشري ويجلّه مهما كان مدى اجتهاد صاحبه ونبوغته. يقول ابن الجزار مستدركاً نقده لجالينوس ودياسقوريدوس : " ومع هذا الذي قدمنا فإن كل واحد منهما فاضل في معناه ممدوح في فعله . وأنه من أتى بأيسر شيء من الصواب ممّا ينتفع به كمن أتى به على التمام"⁽²⁾. وهو ما يؤكد توفر أحد أهم أسس الإبداع الحضاري ألا وهو احترام الذات البشرية ، ولاسيما المبدعة.

ويدعم هذا المنهج العلمي منهجية في التأليف تقوم على الإيجاز والاختصار "وقد قصدت فيما عاينت جمعه وتأليفه مقصد الإيجاز والاختصار وتركت الهذر والإكثار ليكون الكتاب وسطاً فيما بين تطويل من طول وتقصير من قصر وبالله الاستعانة"⁽³⁾.

التضامن والتراحم الإنسانيان

لم يمنع تركيز ابن الجزار على الطب والصيدلة وما يترتب على ذلك من انعكاف وانعزال تامين بداعي التركيز والتدقيق من الإحساس بألم المحتاجين والمساكين، فلم يشأ أن يكون مجرد طبيب بلاط يلهث وراء العطايا والنوال⁴، وإنما عالماً ملتحمًا بقضايا الفقراء والمساكين. ولم يكن ذلك مجرد انفعال عابر أو سطحي، بل كان تفاعلاً واعياً، وهو ما برز في تأليفه لكتاب كامل حمل صفتهم واهتم بصحتهم. يقول في تصديره لذلك الكتاب وهو كتاب طب الفقراء والمساكين : " إلاّ أنّي لما رأيت كثيراً من الفقراء وأهل المسكنة عجزوا عن

(1) www.papencyclopedia.net

(2) ابن الجزار، الاعتماد في الأدوية، ص 2.

(3) م.ن، ص.ن.

(4) ولنا في ما نقله ابن جلجل عن المعاملة العادية التي عامل بها ابن الجزار ابن أخ القاضي النعمان خير مثال على ذلك، راجع كتاب ابن جلجل، طبقات الأطباء و الحكماء...، م.س، ص 84 - 91 .

إدراك منافع ذلك الكتاب وغيره من سائر الكتب التي ألّفها الحكماء في حفظ الصحة على الأصحاء وإبراء المرضى من وجعهم وردّهم إلى الصحة لفقرهم وقلة طاقتهم عن وجود الأشياء التي هي مواد العلاج ولتعدّ وجود الطبيب لها في الكميّة والكيفيّة يكون شفاء من الأمراض، أعني الأطعمة والأشربة والأدوية رأيت عند ذلك أن أجمع لمحبيّ الطب ومن قد يتمهّر في قراءة كتابنا هذا المسمّى بـ زاد المسافر وعلم منه العلل وأسبابها ودلائلها وطرق مداواتها بالأدوية التي يسهل وجودها بأخفّ مؤونة وأيسر كلفة فيسهل عند ذلك علاج العوام على الأطباء من أهل الفقر والمسكنة منهم لهذه الأدوية التي جمعتها من كتب جالينوس ودياسقوريدوس وبولس وغيرهم من أفاضل الأطباء⁽¹⁾.

ولا مرأ في أنّ هذا التمشّي عند ابن الجزار يعكس وعيه بأنّ إنسانية الإنسان لا يمكن أن تكتمل دون حرص على المساواة والتضامن. ولعلّ هذا ما يفسّر إلى حدّ ما اهتمامه بالتنظير للذات الإنسانية منذ مرحلتها المبكّرة ونعني بذلك مرحلة الصبّاء؛ وكأنّنا به يرسم المدرج الذي يجب أن ترتقيه الذات البشرية منذ خطواتها الأولى في الحياة لتشرّف على معالم الإنسانية الحقّة. وفي سياق تعديده لتباين طبائع الصبيان يقول ابن الجزار : "نجد من الصبيان من يقبل الأدب قبولا سهلا، ونجد منهم من لا يقبل ذلك . وكذلك قد نجد من الصبيان من لا يستحي، ونجد منهم من هو كثير الحياء، ونجد منهم من يعني بما يعلمه ويتعلّمه بحرص واجتهاد، ونجد منهم من يملّ التعليم ويبغضه، وقد نجد أيضا في ذوي العناية منهم وذوي العلم من إذا مدح تعلّم علما كثيرا، ومنهم من يتعلّم إذا عاتبته أو عاتبه المعلم ووبّخه ومنهم من لا يتعلّم إلا للفرق من الضرب"⁽²⁾.

ولئن لم يرتق تنظير ابن الجزار في هذا المجال إلى ما يسمح أن نطلق عليه البيداغوجيا التربوية، فإنّه يذكّرنا بإحدى الميزات التي اهتم بها المذهب الإنساني، وهي المتعلّقة بالاهتمام بالجانب التربوي وإيلائه الأهميّة القصوى باعتباره هو الكفيل بتكوين إنسان سويّ متجنّز في إنسانيّته ومنخرط في منظومة الفكر الإنساني، إذ التوفّق في اختيار الشكّل المناسب لتربية الصبيان

(1) ابن الجزار، كتاب طبّ الفقراء والمساكين، م.س، ص 76.

(2) ابن الجزار، سياسة الصبيان، م.س، ص 136.

وتأديبهم يرسّخ فيهم عوائد محمودّة والعكس صحيح، وهو ما فهمه ابن الجزّار وسعى إلى التنبيه إليه "وإنّما أصل العادة أنّ الإنسان إلى العادة أميل وعليها أحرص وبها أشدّ تمسّكا، فليس إذاً من الأسباب الذميمة شيء أقوى سببا إذ كان في طبيعته من مثل ذلك الشيء الذي تعودّه، فإن لم يعن في ذلك الطبع فإنّ العادة وحدها تبلغ في ذلك إذا استحكمت وتمكّنت مبلغا قويا. وكذلك فعل العادة في الأشياء المحسوسة الفاضلة" (1).

ويبدو أنّ ابن الجزّار قد تفتّن إلى أنّ العلل والأسقام التي تصيب الكائن البشري ليست ناجمة كلّها عن خلل عضوي أو قصور إحدى الحواس عن تأدية وظيفتها أو عن الدّورة الدّموية للإنسان، بل قد يعود ذلك إلى أسباب اجتماعية ونفسية قد تكون أشدّ خطرا على صحّة الإنسان وعافيته من غيرها من الأسقام الأخرى. وبهذا يتّضح أنّ ابن الجزّار "لم تقتصر أبحاثه وتجاربته وممارساته على معالجة الأبدان والقضاء على الأمراض نتيجة تبجّره في الطبّ وابتكار الأدوية الناجعة، وإنّما عني كذلك بالجانب التربوي النفسي فدرس الطّبع الإنساني وما تحدّثه التربية والعادة في الخلق إيجابا وسلبا وشرح عوامل التّأديب الحسن والخلق الحميد والسلوك القويم والعوامل المؤدية إلى نقيض ذلك خلقا وسلوكا" (2).

حرمة الذات البشريّة

لقد بوأ الطبّ في المدرسة الطبية القيروانية الإنسان مكانة فضلى، فاعتبره ابن الجزّار الصّناعة الوحيدة التي تترفّع وتسمو عن الاختلافات العرقية والاثنية والدينية "إنّ صناعة الطبّ يحتاج إليها في كلّ حين ويمدحها أهل كلّ ذي دين وذلك أنّ لها غاية واحدة ليست لشيء من الصّناعات وهي استعادة الصحّة التي لا يمكن للإنسان فعل شيء من الأفعال الجميلة ولا الوصول إلى شيء من الأشياء اللذيذة مع فقدها" (3). ولم يكن هذا التحديد للطب مجرد دعاية

(1) م.ن، ص 138.

(2) ابن حمدة، وسيلة بلعيد، التّربية الأخلاقية في فكر ابن الجزّار، مجلّة الهداية، عدد 6، سنة 19، تونس، ص 73.

(3) ابن الجزّار، كتاب في طبّ المشائخ، م.س، 44.

أو زخرفة لفظية اقتضاها التأليف ومنهجه، بل كان ممارسة فعلية وهاجسا حقيقيا في فكر ابن الجزار. ولعلّ هذا ما يفسّر إلى حدّ ما تنوّع الاختصاصات التي كتب فيها ابن الجزار فهناك ما يمكن أن نطلق عليه الطب الوقائي الذي أشار فيه إلى أنّ حقيقة صحّة الإنسان وأسقامه مرتبطة بالنشأة الأولى أي فترة الولادة والرضاعة، فذكر بما خلص إليه جالينوس " أنّ لبن الأم هو أفضل الألبان وذلك إن لم تكن الأم عليلة، لأنّ لبن الأم غذاء قد اعتاده وبه جبل ونشأ " (1). كما يمكن أن ندرجه أيضا في طب الأطفال، وهناك أيضا اهتمام منقطع النظير بالأمراض التي تعرض للإنسان عند إدراكه الهرم في شيخوخته والأعشاب والعقاقير والأخلاط الكفيلة بمقاومتها. ولعلّ الطريف في هذا السياق تخصيص ابن الجزار لتأليف كامل في طب الفقراء والمساكين فصلّ فيه تفصيلا بيّنا الأمراض التي تصيب أهم أعضاء الجسم من الرأس (العين والأذن والقمم...) ثم الجهاز التنفسي والهضمي والتناسلي والمفاصل والأمراض الجلدية. ويمكن عنصر الطرافة في تحديده للطبّ على أساس الوضعية المادية للمريض، وكأننا به كان يدرك ما سيلحق مهنة الطبّ في الحقبة الحديثة والمعاصرة من شوائب متصلة بتقديم المنفعة المادية على ما سواها، والاحتكار الذي تمارسه أطراف معيّنة في مستوى الاكتشافات الطبيّة وإنتاج الأدوية، بل حتّى في توزيعها وترويجها.

ولا شكّ أنّ النقاط الثلاث التي ذكرناها في ما سلف وهي سموّ الطبّ وتنزّهه عن الاختلافات الدينية والمذهبية والعرقية، ثم تنوّع الاختصاصات الطبيّة وارتباط ذلك بالتنوّع بأطوار عمر الإنسان من الطفولة والشباب إلى الشيخوخة والمشيّب، فأخلاقيات مهنة الطبيب وحتمية مراعاة الطبيب لظروف الطبقة الاجتماعية المعوزة والفقيرة تثبت قيمة الإنسان وحرمة في الثقافة العربية الإسلامية إبان ازدهارها وسوددها. ولعلّ هذا أحد الشروط الأساسية التي ضمنت لها وضع المركز في الحضارة العالمية آنذاك.

(1) سياسة الصبيان، م.س، ص 61.

إذا كانت هذه الثنائية وإشكالية التوفيق بينها قد شكّلت مفارقة وتوتراً في بعض الأنساق المعرفية ولدى العديد من الحكماء والمفكرين، فإنّ ابن الجزار - الذي اعتمد التجريب في حسمه لنتائج بحوثه والذي ميّز بين الطب والصيدلة - غالباً ما تتواتر في تأليفه عبارة "إن شاء الله" (1). بيد أنّ هذا التفاعل بين عناصر هذه الثنائية سألقة الذكر لا يقتصر على المستوى اللفظي، وإنما هي متداخلة حتّى ضمن تفسيراته وتعليقاته للعديد من الظواهر التي عني برصدها، فهو عندما يلاحظ ما يقوم به الرضيع بعد ولادته في سبيل تغذيته يفسّر حسن إتقان الصبي ونجاحه في الاسترضاع بمفهوم الفطرة، رغم أنّه أشار إلى ذلك على أساس أنّه تعليم، بل كأنّه تعليم. يقول ابن الجزار في ذلك : "فإن أنت وضعت حلمة الثدي في فم المولود وجدته يعصرها ويعين عليها بشفتيه، ثم يقنت لسانه ويجذبه فيدفع اللبن إلى حلقه كأنّه قد تعلّم ذلك منذ دهر طويل. فإذا صار اللبن إلى المريء أوصله إلى المعدة، فإذا أخذت المعدة من ذلك اللبن حاجتها دفعت عنها ما يفضل منه إلى الأمعاء ولا تزال تنفذ من واحد إلى واحد حتّى يصير إلى الآخر كأنّه قد عرف ذلك كلّهُ بالتعليم" (2). ويمكننا القول أنّ ثنائية العلم والإيمان كانت مصدراً من مصادر تواصل الجهود وتراكمها في سبيل بروز طبّ عربي مستلهم لتراث الحضارات السابقة من حضارة العرب قبل الإسلام وحضارة الفرس واليونان إلى حضارة الإسلام والطبّ النبوي. وما يدعم هذا الرأي أنّنا نجد مفهوم الاستمرارية والتواصل مجسّماً تجسيمياً فعلياً في تعريب المصطلحات الطبية والصيدلية. فعلى سبيل الذكر تعامل الأطباء والنباتيون العرب مع المقالات الخمس لبدانيوس ديوسقوريدس بنزعة علمية بيّنة لا تخلو من إيمان بأنّ حياة الإنسان لا تنتهي بموته، بل تتواصل من خلال الأثر الطيّب والذكر الجميل للذين سيخلفانه من بعده. وفي هذا السياق سياق تواصل الجهود العلمية وتكاملها اعتبر الأستاذ ابن مراد (3) أنّ ابن الجزار هو أوّل من

(1) انظر على سبيل الذكر سياسة الصبيان....، م.س، ص 66 - 68.

(2) م.ن، ص 61.

(3) ابن مراد، إبراهيم، في منهجية نقل العلوم الأعجمية إلى الثقافة العربية انتقال مقالات ديوسقوريدس، ترجمة ومراجعة وشرحا، حوليات الجامعة التونسية، عدد 24، تونس، 1985، ص 258.

ترجم المقالات الخمس لديوسقوريدس ترجمة غير مباشرة " وقد كان في كتابه الاعتماد في الأدوية المفردة الذي ألف قبل سنة 334 هـ / 945 م أي قبل مراجعة كتاب ديوسقوريدس الأول، وهي المراجعة الأندلسية، وقد كانت غاية ابن الجزار الأساسية من تأليفه كتابه إتمام أوجه النقص في كتب الأقدمين وخاصة كتب ديوسقوريدس وجالينوس الذي تمثل في غياب مرادفات ومماثلات بعض الأدوية المفردة التي ذكرها هذان الحكيمان في اللسان العربي" (1).

وقد كان التجريب الذي اعتمده ابن الجزار لتلك الأدوية والنباتات إحدى الآليات التي كشفت له إمكانية وجود مرادفات لتلك المصطلحات اليونانية في اللغة العربية الفصحى واللغة العامية سواء كانت عامية عربية أو عامية لاتينية (2). ومن تلك التعريفات يمكن أن نذكر تفسيره لمصطلح "فو" بمصطلح عامي تونسي هو " سنته قابده الزرقاء ". ومصطلح " أسطرخوذوس " بمصطلح عامي تونسي أيضا هو " أرسمية " ومصطلح " إشقيل " بمصطلحات " عنصل " و" عنصلان " و" بصل الفأر ". ومصطلح " اخثيمون " بـ " سعيتره ". ومصطلح " أنيسون " بـ " حبة حلوة " (3).

وإنّ ما يلفت النظر حقاً ويؤكد أنّ العقل المستتير يسهل عليه الاهتداء إلى الصواب أنّ ابن الجزار الطبيب والمؤرخ العربي المسلم لم يتأفّف أو يتبرّم من التعامل مع مصادر وثنية إغريقية، بل اعتبر عالمين منها، وهما جالينوس وديسقوريدس أعظم رجلين في علمهما. وهذا يعود في ما نعتقد إلى عمق نظرته إلى معنى الحضارة الإنسانية، فهي حضارة ذات مناهل وأبعاد متعدّدة لا يمكن لأيّ أحد أن يدّعي استنثاؤه بها، فما وصل إليه الإغريق هو ثمرة ما أفرزته الحضارة الفرعونية وحضارة بلاد ما بين النهرين و الحضارة الفارسية. كما أنّ وعيه بأنّ الدين الإسلامي دين موجه إلى كافة البشرية وغايته الأساسية الرقي بالإنسان أينما وجد بايقاظ عقله وتسليمه مشعل قيادة العالم بعد انقطاع الوحي واختتام النبوة بشرط الانصراف كلياً للاجتهاد والتجريب دون أن تستغف قواه

(1) م.ن، ص.ن.

(2) م.ن، ص.ن.

(3) م.ن، ص 259.

في مسائل التبرير الذي كلف ولا يزال يكلف الفكر العربي الكثير من الجهد والوقت.

(2) أبعاد النزعة الإنسانية في فكر ابن الجزار

البعد المفهومي

إنّ المعرفة والعلم اللذين خلص إليهما ابن الجزار في تجاربه الطبيّة والصيدليّة لم يزيدها إلّا تعلّقاً بالمفهوم الذي انطلق منه في مزاوله صناعة الطبّ، ذلك المفهوم الذي يتأسّس بصفة محوريّة على الذات البشرية بما هي ذات واعية لها حرمتها المادية والمعنوية التي لا يجوز المساس بها مطلقاً حتّى في حالة ضعفها وبلوغها أرذل العمر أو في حالة الخصاصة والفقر بقطع النظر عن معتقدها وجنسها، وهو ما جعله يسم الطب "بجلالة القدر"، وهي صفة معنوية ذات أبعاد أخلاقية تحيل جدلاً على أخلاقيات المهنة وشروطها ومنافعها العاجلة والآجلة : "إنّ العلم بحفظ الصّحة على الأصحاء على حسب ما توجبه أسنانهم وطبائع بلدانهم وحاجاتهم باب عظيم الخطر جليل القدر في صناعة الطب. وذلك أنّ الإنسان إذا علم ذلك وعمل بما علم أمكنه أن يصير إلى حدّ الشيخوخة القصوى وجميع جوارحه سليمة من الأمراض والأوجاع، ويبلغ أقصى العمر الطبيعي وهو معزاً من الآفات التي يحتاج معها إلى من يحمله ويقوم له بتدبير طعامه وشرابه كما يفعل بالأطفال، وهذه الحال كان أفلاطون يسمّيها أم النسيان" (1). وإذا ما استحضرنّا ما ذكره ابن جليل (ت 384هـ / 994م) من أنّ ابن الجزار كان يتعقّف من قبول المال سواء من الأكابر أو من مرضاه (2)، وما تردّد عن توزيعه للأموال والأدوية على الفقراء والمساكين، يترسّخ لدينا اليقين من تشبّع ابن الجزار بالمنزع الإنساني تنظيراً وممارسة، ممّا يعني أنّ مفهوم الطب في فكره لا يمكن أن يعزل عن الأخلاق، وهو ما يدلّ على التأثير الإيجابي لثقافته الدّينية إضافة إلى اطلاعه على عهد إيقراط لمزاوله صناعة الطبّ.

(1) ابن الجزار، كتاب في طب المشائخ ...، م.س، ص 39 .

(2) ابن جليل، طبقات الأطباء والحكماء، م.س، ص 84 - 91.

ولا جدال في أنّ هذا المفهوم للطب لا ينحصر عند ابن الجزار فقط بل شمل شريحة هامة من الأطباء العرب في دمشق وبغداد وقرطبة، رغم ما حفظته كتب التواريخ والأخبار من تورّط بعضهم في مقتل الحكّام والأمراء بدسّ السمّ والعقاقير المغلوطة.

الأبعاد الحضاريّة

يعتبر التعدّد أو التنوّع من أهمّ الدلالات المستخلصة من بحثنا في النزعة الإنسانية في فكر ابن الجزار، وهو تعدّد ذو مستويات عديدة ومختلفة، إذ الطب عنده -كما سجلنا في ما سلف- علم وصناعة ترتبط بالإنسان صبيّاً أو شيخاً غنياً أو فقيراً. كما لا يقتصر الأمر على مداواة الأبدان، بل يشمل كذلك الجانب النفسي للإنسان سواء عبر التأديب في سنّ مبكّرة أو بواسطة الموسيقى أي ما يعرف اليوم بالعلاج النفسي. يقول ابن الجزار في سياق إقراره بدور الأنغام في تلطيف مزاج الصبي : "إنّ الأصوات اللذيذة تلحق النفس والطبيعة الالتذاذ بها من غير تعب. ومن أجل ذلك صار الأطفال إن نغم لهم نغم حسنة يستلذونها فسكنت طبائعهم وهدأت وناموا من قريب " (1).

ويبدو أنّ هذا الإقرار من ابن الجزار بأهميّة التربية النفسية أو العلاج النفسي يعود في الأصل إلى عمق ثقافته العلمية والأدبية والاجتماعية. فمن المعلوم أنّ ابن الجزار ألف في التاريخ كتاباً موسوماً بـ"التعريف بصحيح التاريخ". ولئن ضاع هذا الكتاب فقد وصلت إلينا شذرات منه من خلال ما نقله عنه القاضي عياض (2) وابن خلكان (3).

فالتاريخ يفرض على صاحبه التغلغل في عمق المجتمع وروحه بسبر خباياه وأغواره. فليس من الغريب أن يحسّ ابن الجزار بالآلام المستضعفين فيعمل على نجاتهم وإغاثتهم تنظيراً وممارسة. وقد عزّزت جهود ابن الجزار

(1) ابن الجزار، سياسة الصبيان ...، م.س، ص 67 .

(2) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد بن تاويت، ط2، وزارة الأوقاف المغربية، الرباط، (د.ت)، ج 1، ص 119.

(3) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت).

الرصيد القيمي والحضاري للمجتمع القيرواني الذي يزخر بقيم التضامن والتآخي والتسامح، إذ أثبتت عديد المصادر ذلك الأمر. فعلى سبيل الذكر يقول المقدسي : " لا ترى أكثر من مدنها ولا أرفق من أهلها، ليس غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة لا شغب بينهم ولا عصبية. لاجرم أنهم على نور من ربهم قد أقبلوا على ما يعينهم وارتفع الغلّ من قلوبهم فهي مفخرة المغرب ومركز السلطان وأحد الأركان " (1).

ولئن كان تعجّب المقدسي نابعا من المقارنة بين الحالة التي عاينها في القيروان و الحالة التي كان عليها المجتمع الشرقي في تلك الفترة، فإنّه في الحقيقة أمر طبيعي باعتبار أنّ التركيبة الذهنية والنفسية للمجتمع القيرواني بصفة عامة كانت متقبّلة لقيم المغايرة والاختلاف؛ فابن الجزار تلميذ لإسحاق بن سليمان الاسرائيلي (2)، وغلبت المصادر اليونانية على ماعداها من المصادر في كتبه؛ ولكنّه في ذات الوقت لم يقتبس إلّا ما هو فعلا حكمة عقلية لا تتعارض مع اعتقاده ودينه، بل تدعمها وتتسجم معها. ولا شك أنّ مثل هذا كان من أهمّ الشروط الحضارية التي أمّنت الإبداع والازدهار الحضاريين.

الخاتمة

تكمّن قيمة استقرائنا للنزعة الإنسانية في فكر ابن الجزار في تحديدنا لأمرين هامين هما :

- ترسخ الحسّ الإنساني في فكر ابن الجزار إلى حدّ يمكننا القول فيه أنّه مبدأ أساسي في فكره اقترن بالربط المتين بين التنظير والممارسة، ولكنّه في ذات الوقت محتكم إلى أطر واضحة ومضبوطة من أهمها وجوب احترام الذات البشرية وصونها بالوقاية والعلاج والعناية والمداومة، ثم توسيع آفاقها وعدم التضيق عليها بتوظيف كلّ ما يمكن أن يسهم في مناعتها وعزّها؛ فالتعامل

(1) المقدسي، أبو عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق م. ج. دي خوري، طبعة ليدن، بريل، 1967م، ج 1، ص 82.

(2) الذهبي، الحافظ شمس الدين، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرّسالة، بيروت، (دبت)، ج 1، ص 561.

النقدي مع المصادر المنقولة من الآخر حتّى لو كان ذلك من الأساطين المؤسّسين.

- لا يمكن أن نعتبر ابن الجزار أو غيره علامة فارقة في حضارة القيروان والحضارة العربية الإسلامية ككل لأنّه لم يكن في الحقيقة سوى نتاج لثقافة عصره التي زخرت برصيد قيميّ ثريّ بالقيم الإنسانية الخالدة رغم ما شهدته أحياناً من تجاذب وتنافر بين النزعة الإنسانية الأصيلة فيها وإكراهات الهمجية الدخيلة عليها.

